(بِيستي) عباس الأول

يوم خطف الصفويون بغداد للمرة الأخيرة





آزاد اسكندر – العراق

بتدأت بإسماعيل وانتهت بإسماعيل، السلالة الصفوية الحاكمة التي انبثقت عن طريقة صوفية تزعمها سنة ١٣٠١م شيخ شافعي المذهب هو صفي الدين الأردبيلي. سرعان ما تحولت الطريقة الصوفية بعد تأسيسها إلى حركة دينية، مساندوها الرئيسيون ينتمون إلى مجموعة قبائل تركمانية سميت بالقزلباش، أي الرؤوس الحمر، نسبةً إلى أغطية الرأس الحمراء التي يرتدونها. تدرجت رئاسة الطريقة إلى أن وصلت إلى إسماعيل الصفوي، أو إسماعيل الأول، الذي حول الحركة الدينية إلى سلالة حاكمة بعد مضي قرابة القرنين على ولادتها، في تلك الأثناء كان الصفويون قد تحولوا إلى التشيع الذي فرضه إسماعيل الأول مذهبًا رسميًا لإيران.

من؟ ومتى؟ وأين؟
السلالة الصفوية: (١٥٠١م-١٧٧٣م)
إيران وأجزاء من العراق وشرق الأناضول

وصل الصفويون إلى بغداد مرتين، الأولى على يد إسماعيل الأول سنة ١٥٠٨م، وانتهى الحكم الصفوي الأول سنة ١٥٣٤م، حين أتى السلطان العثماني سليمان «القانوني» إلى بغداد فضم العراق إلى الإمبراطورية العثمانية. والثانية التي هي مدار اهتمامنا، في عهد عباس الأول، أو عباس بُزُرْگ، أي الكبير، كما يسميه قومه، الذي دخل بغداد سنة ١٦٢٣م.

سنحت الفرصة لعباس حين نشبت معركة للسيطرة على بغداد، بين الوالي العثماني عليها يوسف باشا وصاحب شرطته بكر صوباشي. قُتِلَ الوالي في المعركة فأصبح الصوباشي حاكمًا لبغداد، وأرسل طلبًا للباب العالي كي يُعتَرَف به واليًا، لكن حين وصل الخبر إلى السلطان أرسل جيشًا بدلًا من الفرمان. فاستعان الصوباشي بالصفويين وأبدى استعداده لحكم البلاد لصالحهم.

قرر الشاه انتهاز الفرصة، ولكن لم يكن لديه من المال ما يكفي. فأعطى لجنوده قطعًا جلدية مدورة، كُتِبَ عليها: بغداد، واسم الشاه، على أن يستبدلوها بالنقود بعد انقضاء الحملة، وقد كان. اتجهت جيوش الشاه عباس إلى بغداد، فلما سمع العثمانيون بذلك غيروا رأيهم، وأرسلوا إلى الصوباشي ب»الإنعام» عليه بولاية بغداد. فندم الأخير على الاستعانة بالفرس، وحاول أن يثنيهم عن المجيء، لكن بعد فوات الأوان. إذ جاء الشاه بنفسه وحاصر المدينة إلى أن تمكن من دخولها بمساعدة محمد ابن الصوباشي الذي خان أباه وفتح «باب السر التي في جانب الشط فدخل منها عشرة آلاف شخص وضربوا البوق وقت السحر .»

أما بكر صوباشي: «فإنه وُضِعَ في قفص من حديد ولم يدعوا له مجالًا أن ينام لمدة سبعة أيام، وأكرهوه على إبراز ما عنده من الأموال بطريق التعذيب، وكووه بالنار إلى أن اشتوى لحمه ليبين مواقع أمواله. وأن ابنه يشاهده بهذه الحالة ولا يبالي، بل كان يشرب ويضحك على أبيه المتألم. وبعد أن بين جميع أمواله ولم يبقَ أمل في إخراج غيرها، أمر الشاه أن يوضع في سفينة، ويصب في أطرافه النفط والقطران ويشعل بالنار فأحرقه وأخاه عمر.»

(تاريخ العراق بين احتلالين، ج٤، ص٢٢٣)

من أهم ما يفعله المنتصر كي يعلن عن عهده وسلطته هو ضرب النقود باسمه. وهكذا ضُرِبَت النقود الصفوية في بغداد باسم الشاه عباس، ومنها هذا (البِيستي) شديد الندرة من مجموعتي الشخصية، انظر الصورة رقم ١.



(الصورة رقم ١)

مركز الوجه: عباس، ضرب بغداد.
مركز الظهر: لا إله إلا الله، محمد نبي الله، علي ولي الله.
المعدن: فضة.
الوزن: ٠،٧٩ غم

مما يميز هذا (البِيستي) أنه ضُرِبَ لفترة وجيزة في بداية الوجود الصفوي الثاني في بغداد، وجاء تصميمه على غرار الدراهم العثمانية التي كانت تُضرَب في تلك السنوات. ، على سبيل المثال هذا الدرهم العثماني من ضرب الموصل، سنة ٩٨٢هـ/١٥٧٤م، انظر الصورة رقم ٢.



(الصورة رقم ٢)

ثم استُبدِلَ التصميم المقتبس من الدراهم العثمانية بآخر يحاكي التصاميم المعتادة في النقود الفارسية، كما في هذا البِيستي الآخر من ضرب بغداد سنة ١٠٣٣ هـ انظر الصورة رقم ٣.



(الصورة رقم ٣)

كي نفهم طبيعة هذه القطعة النقدية النادرة التي نحن بصددها (راجع الصورة رقم ١)، ينبغي أن نعطي لمحة عن النظام المالي الصفوي. ضرب الصفويون النقود الذهبية والفضية والنحاسية. فأما النقود الذهبية فلم تكن متداوَلة بين الناس، إنما ضُرِبَت لتبقى غالبًا في أيدي عِلْية القوم، ولتُستَخدَم في المناسبات الخاصة كجلوس الشاه على العرش مثلًا، ولاستعراضها أمام السفراء الأجانب، وما إلى ذلك من مناسبات.

وأما النقود الفضية فهي الفئة الرئيسة المستخدمة لأغراض الضرائب والشؤون الإدارية للدولة، والعمليات التجارية الكبيرة، ومنها التجارة الخارجية.
وأما النقود النحاسية فكانت للمعاملات التجارية اليومية، ولأجور الحرفيين والجنود، وهي المتداولة بين أيدي العامة من الناس. يضربها الحكام المحليون للتداول في مناطق حكمهم، وبنصف القيمة في المناطق الأخرى.

تعددت الفئات من كل نوع، وامتازت النقود الصفوية الذهبية والفضية بنقاوتها الجيدة عمومًا. إلا أن إيران الصفوية كانت تعاني من ندرة مناجم الذهب والفضة، ولهذا اعتمدت على تدفق المعدنين الثمينين من الخارج، مما سبب مشاكل اقتصادية عديدة.

ضُرِبَت النقود الصفوية الذهبية على أساس الأشرفي الذي يزن ٣،٥٥ غم، والمثقال الفارسي الذي يزن ٤،٦١ غم. أما تسمية الـ«الأشرفي» فجاءت من النقود الذهبية التي ضربها سلطان مصر المملوكية الأشرف برسباي بنفس الاسم، والتي بدورها ضُرِبَت على أساس (دوكات) البندقية المعروف بنقاوته ووزنه المستقر.

نأتي إلى الفضة الصفوية التي منها قطعتنا المبينة في (الصورة رقم ١)، ضرب الصفويون فئات فضية متعددة من أهمها العباسي والشاهي والبِيستي. العباسي يساوي ٤ شاهيات، والشاهي يساوي ٢,٥ بِيستي. كما أصدروا مضاعفات وكسور هذه الفئات أيضًا (الدو شاهي= ٢ شاهي مثلًا)، ونصف العباسي ونصف البِيستي الخ. وحدة الوزن المعتمدة في الفضة الصفوية هي النخود، وهذه تساوي دائمًا ١٩٢ ملغ. مع العلم أن النقود الصفوية الذهبية والفضية لم تكن تحمل أسماء الفئات، وكانت تُضرَب بالقوالب نفسها.

اعتمدت المحاسبة في النظام المالي الصفوي على وحدات هي بمثابة مقاييس للقيمة. وحدات المحاسبة هذه ليست نقودًا حقيقية، إنما هي وحدات نظرية لحساب القيمة. وحدة المحاسبة بالنسبة إلى النقود الفضية الصفوية هي التومان، و(تومان) كلمة مغولية في الأصل تعني عشرة آلاف، وتشير هنا إلى مقدار عشرة آلاف دينار. والدينار المقصود في هذا السياق ليس قطعةً نقدية هو الآخر، إنما وحدة محاسبة. كل فئة فضية من النقود الصفوية تساوي مقدارًا معينًا من الدنانير. فالعباسي يساوي ٢٠٠ دينار، والشاهي يساوي ٥٠ دينار، والبِستي يساوي ٢٠ دينار. من هنا جاءت تسمية (بِستي) التي تعني بالفارسية: عشرين.

مقدار ما في التومان من نخود، وبالتالي مقدار ما في الدينار من نخود ووزن النقود نفسها، خضع للتغيير زيادةً ونقصانًا باختلاف العهود، فكان التومان يساوي في أوائل عهد إسماعيل الأول مثلًا ٩٦٠٠ نُخود (حوالي ١٨٤٣ غم)، أما في أواخر عهد عباس الأول فأصبح يساوي ٢٠٠٠ نُخود (حوالي ٣٨٤ غم)، وهكذا. بل في معظم الأحيان تغير المقدار لأكثر من مرة في عهد الشاه نفسه أيضًا، ومن إقليم إلى آخر.

على سبيل التوضيح لنفترض أن تاجرًا ما، كان مدينًا لتاجر آخر بمبلغ من المال نظير خدمات أو سلع. هذا المبلغ من المال لا يُسَجَّل لأغراض المحاسبة بالفئات النقدية، إنما بوحدة المحاسبة التي تساوي مقدارًا معينًا من المعدن الثمين حسب المعيار المعمول به وقتها، وللمدين أن يدفعه بأي فئة كانت. ففي مثالنا، لنقل إنّ مقدار الدين تومان واحد. في هذه الحالة، بمقدور التاجر المدين أن يدفع بأي فئة كانت، المهم أن يكون المجموع مساويًا لتومان واحد حسب المعيار المعمول به، الذي هو مقدار الدين.

ضبط السنة الهجرية لدخول عباس الأول إلى بغداد:

أورد الأستاذ الراحل عباس العزاوي في كتابه (تاريخ العراق بين احتلالين)، تاريخين هجريين محتملين لدخول الشاه عباس إلى بغداد، نقلًا عن المصادر التركية والإيرانية. الأول هو يوم الأحد ٢٣ ربيع الأول سنة ١٠٣٢هـ والثاني نقلًا عن «تواريخ تركية عديدة» يقع في اليوم الثاني من صفر سنة ١٠٣٣هـ.

يرجح العزاوي أن سنة ١٠٣٢هـ هي التاريخ الصحيح للحدث، ويتوصل إلى ذلك بالمقارنة بين النصوص التاريخية. إلا أن ما لدينا من نقود من تلك الحقبة لا يدعم هذا الاختيار، بل يشير إلى صواب الرواية الثانية التي تحدد سنة ١٠٣٣هـ. فبالرجوع إلى النماذج المعروفة من النقود الصفوية من ضرب بغداد، لم نجد سنة ١٠٣٢هـ على أيٍ منها، بل وجدنا سنة ١٠٣٣هـ كما في هذا الشاهي الصفوي المضروب على الطراز العثماني في بغداد سنة ١٠٣٣هـ وتبدو عليه سنة الضرب بوضوح، انظر الصورة رقم ٤.



(الصورة رقم ٤)

من ناحية أخرى، لم نجد في المراجع أي ذكر لنقود صفوية من ضرب بغداد سنة ١٠٣٢هـ فمثلًا لم يسجل عمر دلر في كتابه المهم جدًا، وهو (Islamic mints) المرجع الشامل في دور الضرب الإسلامية، نقودًا ضربت في بغداد في تلك السنة. فإذا كان تاريخ ٢٣ ربيع الأول ١٠٣٢هـ صحيحًا، فإن هذا يعني مرور حوالي ١٠ أشهر على الوجود الصفوي في بغداد دون ضرب النقود فيها. بينما يشير العزاوي في المرجع المذكور آنفًا، إلى أن النقود الصفوية ضُرِبَت في بغداد باسم الشاه منذ البداية وقبل أن يدخل غازيًا إلى المدينة، في الفترة التي سبقت رجوع بكر صوباشي عن الاستعانة بالصفويين.

بناءً على ما سبق، نرجح سنة ١٠٣٣هـ تاريخًا لدخول الشاه عباس إلى بغداد، إلا إذا اكتُشِفَت نقود صفوية من ضرب بغداد سنة ١٠٣٢هـ في قابل الأيام، وهو ما لم يحدث حتى الآن. فإذا صَحَّ الاستنتاج بأن تاريخ دخول الصفويين الثاني إلى بغداد هو الثاني من صفر ١٠٣٣هـ كان التاريخ الميلادي الموافق له هو أواخر تشرين الثاني/نوفمبر ١٦٢٣م.

نقطة أخيرة تتبقى في هذا السياق، وهي أن عمر دلر في كتابه المذكور يسجل وجود قطعة نقدية صفوية من ضرب بغداد سنة ١٠٣١هـ وهذا تاريخ مبكر جدًا لا تدعمه النصوص التاريخية. بيعت القطعة المعنية في أحد المزادات العالمية سنة ١٩٧٧م، ولم أتوصل إلى أي معلومات إضافية عنها. فأما أن هنالك خطأ في تحديد سنة الضرب، أو دار الضرب، تبقى هذه الإشكالية دون جواب قاطع بالنسبة إلينا في الوقت الحالي.

ارتكب الشاه مجزرة بحق أهالي بغداد حين دخلها، ولم يعمر طويلًا بعدها، إذ توفي سنة ١٦٢٩م. حين مات لم يرث العرش أيٌ من أولاده، لأنه قتل أكبرهم وحكم على الآخَرَيْن بالعمى والسجن، فورث حفيده العرش. ظلت بغداد في حيازة الصفويين إلى أن جاء السلطان العثماني مراد الرابع على رأس حملة لـ«استرداد» بغداد سنة ١٦٣٨م، فأخذها وكان هذا آخر عهد الصفويين ببغداد.

اتجهت الدولة الصفوية إلى الانحدار بعد ذلك، إلى أن حلت سنة ١٧٢٢م فسَلَّم السلطان حسين آخر الحكام الفعليين، الأمر إلى سلالة من الشاهات الأفغان لم تدم طويلًا. إذ سطع نجم نادر شاه مؤسس السلالة الأفشرية في إيران، الذي حاصر بغداد والموصل دون أن يتمكن منهما، ثم اغتيل فَعَمَّت الفوضى ونشب صراع على السلطة. في هذه الأثناء كانت بعض الأطراف المتصارعة، بمن فيهم نادر شاه، قد أبقت على أمراء صفويين ليس لهم من الأمر سوى الاسم، ريثما يتم الاستيلاء الكامل على الحكم. كان آخر هؤلاء الأمراء الصفويين الدمى هو إسماعيل الثالث، الذي توفي سنة ١٧٧٣م في عهد كريم خان الزند، مؤسس السلالة الزندية (١٧٥١-١٧٩٤) الذي خرج منتصرًا. حكم كريم خان بلاد فارس باستثناء خراسان تسعًا وعشرين سنة، إحتل خلالها البصرة سنة ١٧٧٦م، ولكن هذه قصة أخرى ترويها نقود أخرى، إحداها في حيازتي وسأكتبُ عنها في المقالة القادمة.

المصـــادر

١- عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، الدار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠٠٤

2- Omer Diler, Islamic Mints, Mas Matbaacilik A. S., Istanbul 2009.

3- Rudi Matthee, Willem Floor and Patrick Clawson, The Monetary History of Iran. From The Safavids to the Qajars, I.B. Tauris & Co Ltd, London 2013.

4- Darley-Doran, R. 1995, 'Safawids', The Encyclopaedia Of Islam, E. J. Brill, Leiden.

5- Sir Wolseley Haige, Comparative Tables of Muhammadan and Christian Dates, Luzac & Company 1932.

6- J. R. Perry (1971) The Last Safavids, 1722-1773, Iran, 9:1, 59-70.